الفصل الثالث

طبيعة الموت والسر فيه

الفصل الثالث
طبيعة الموت والسر فيه

تمهيد:

تساؤلات عن طبيعة الموت؟

كم نقف أمام الموت – هذا السر الرهيب – نتساءل عن سببه وعن طبيعته في حيرة: ما هذا الفاعل الكاسح الذي يلوي أعناقنا، ويذل كبرياءنا، ويضع أنوفنا حقيقة في الرغام، بل بأجسادنا كلها في حفر موحشة مظلمة، نسميها اللحود أو القبور أو ما شئت لتكون فريسة طيعة لخشاش الأرض وحشراتها، تعبث بها وتنهشها كيف تشاء! أو ماهو السر الكامن الذي يؤدي إلى ضياع « الحياة » هكذا من هذا الجسد؟

انظر معي إلى هذا الإنسان يمتلئ شبابا وحيوية، قوة وفتوة، تتدفق الحياة من جوانبه، وتفور العواطف من أعماقه، يبتسم للحياة، يعانقها بشوق وحب، ترتسم الآمال والأحلام في آفاق عقله، لا تريد أن تقف عند مدى كأنما هو زهرة تتفتح لأنداء الصباح. وفجأة هذه الزهرة اليانعة الفواحة تموت..!! نعم تموت؛ تذوى وتصفر وتجف وتصبح هشيماً تذروها الرياح، أو سطراً مشوشا تائها بين أسطر كتاب الوجود الضخم المهول، أو كلمة صغيرة منزوية في ورقة صفراء داخل دفتر صغير على رف حقير في حجرة مظلمة تقول: كان هنا في الزمان الماضي إنسان يعيش!.

«ما السبب في أن الشجرة المزهرة، تحتفظ بشكلها وأوراقها؛ على حين تتناثر شجرة أخرى تلك التي نسميها ميتة وتتساقط أجزاؤها، وتتفتت في الثرى »[1].

إن يد الموت الكهربائية، هي التي لمست الشجرة الثانية، فأودت بحياتها، وداهمت غصونها بالذبول والهمود والجفاف والفناء، فذهب رونقها وغاض ماؤها، وتناثرت

(١) آرثر فندلاى : على حافة العالم الأثيري ص٤٣.

أوراقها في مهاب الرياح.

نعم ما طبيعة الموت! هكذا يقف الإنسان في حيرة من أمره، وهو يواجه قوة قاهرة تنتصر عليه في كل دقيقة ولحظة من حياته اليومية.

فإذا كانت الحياة الأولى سرا كبيرا فإن «الموت سرا آخر يعجز العقل البشري عن تصور كنهه، وهو يتم في لحظة خاطفة»[١] ولكن ثم مجال للتأمل والتدبر.

إن الباحث لا يدعي أنه يحاول أن يعرف كنه الموت، أو سره الذي يقف متواريا خلف حجب كثيفة، فهذا مجال مبهم لا يحيط به إلا علام الغيوب رب العالمين.

وإنما هذه محاولة لاستكشاف بعض جوانب هذه الطبيعة «طبيعة الموت» من خلال ما نلمسه في حياتنا اليومية من مظاهر وخصائص قد نستطيع أن نتفهمها وما تركه لنا العلماء السابقون من اجتهادات ورؤى خاصة قد تضئ شيئا من هذا الطريق المظلم

ولا شك أننا نرى أو نلحظ في حياتنا اليومية نوعين من الموت:

أولهما: موت جزئي، وهو هذا الموت المتكرر في الأحايين أو كل يوم أو حتى دون ذلك. وثانيهما: الموت الكلي المعروف.

أولا: موت جزئي في هذه الدنيا:

١- موت الخلايا:

إن أول مظهر من مظاهر الموت التي نلحظها في الحياة، هو هذا الموت المتتابع للخلايا الحية في الجسم الإنساني، حيث تموت داخل جسم الإنسان ملايين الخلايا كل دقيقة، وتولد ملايين أخرى في سلسلة لا تتوقف ولا تنتهي إلا بانتهاء الحياة.

«الحياة والموت، يدب أحدهما في الآخر في بطء وتدرج، كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة، ويأكل منه الموت وتبني فيه الحياة! خلايا حية منه تموت وتذهب، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل وما ذهب منه ميتا يعود بعضه في دورة أخرى

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن جـ١٧، سورة الحج ص٦٥٢.

إلى الحياة.. وما نشأ حيا يعود في دورة أخرى إلى الموت »[١].

فالحياة والموت قرينان داخل الجسد الواحد، أو بتعبير آخر: إن دورة الحياة تسير في طريقها المرسوم، وتتوازى تماماً مع دورة الموت التي تسير هي أيضا في طريقها المرسوم. وهكذا يحمل الإنسان في داخله عوامل الحياة، وعوامل الفناء في آن واحد ومكان واحد! وهذه إحدى عجائب المخلوقات، صنع العناية الإلهية.

فمن أسرار الحكمة الإلهية، عظة وعبرة، أن يكون الجسم الإنساني مسرحا لعمليتين متناقضتين في الخصائص والسمات « فسمة الحياة التي يحياها الإنسان هي الفاعلية والنمو والامتداد، وسمة الموت: هي السلبية والخمود والانقطاع »[٢]. وهو مصداق واحد من مصاديق قوله سبحانه: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.....[٣].

٢- حالة فقدان الوعي:

هذه صورة أخرى من صور الموت الجزئي.. ولا يهمنا هنا مناقشة أسباب فقدان الوعي. ولكن ما يهمنا هو أن هذه الحالة تتشابه من بعض الأوجه مع حالة الموت الكلي، وهناك خصائص مشتركة تجمعهما أهمها: فقدان الإدراك لما يحيط بالإنسان، وبالتالي تعطل الحواس المختلفة بحيث تصبح بلا عمل، وما دامت الحواس أصبحت معطلة لا تعطي العقل صورا حسية: سمعية أو بصرية، أو لمسية أو ذوقية أو شمية، فإن الإدراك العقلي بدوره يتوقف هو الآخر، ومن ثم لا تصل إلى العقل إشارات يستطيع أن يترجمها إلى معان كلية أو جزئية، وقديما قال أرسطو: من فقد حسا فقد علما.

فالعقل – هنا – يتوقف كلية عن القيام بدوره المنوط به لخلل ما، كأنما أصيب بالشلل فلا يتأتى منه أي نشاط من نشاطاته، مثل التصور أو التخيل أو الرؤية المنامية أو التذكر أو إصدار الأوامر وتلقي الإشارات من الحواس، والدليل على ذلك أن فاقد الوعي عندما يسترد وعيه، وتعود له قواه الإدراكية يتعجب كيف مر عليه يوم أو أكثر، ويتصور أن

(١) في ظلال القرآن جـ٢ ، تفسير سورة البقرة ، ص٥٦٧.
(٢) في ظلال القرآن جـ٢ ، تفسير سورة البقرة ، ص٢٠٠.
(٣) سورة آل عمران الآية ٢٧.

الأمر كله لا يتعدى لحظة.

ومسألة جهل الإنسان بالزمن الحقيقي الذي مكثه في حالة الغيبوبة تذكرني بما حدث من لبس واشتباه لأهل الكهف، أولئك الفتية الذين مكثوا في كهفهم ثلاثمائة عام وازدادوا تسعا، وللرجل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال: ﴿**أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**﴾[1]. ومن ثم أقول: إن مسألة عدم إدراك الزمن الحقيقي قاسم مشترك بين جميع من فقدوا وعيهم أو ناموا نوما قصيرا أو طويلا، أو حتى ماتوا موتا حقيقيا.

والخاصية الثانية: أن جسم الإنسان يصبح معطلا، وهي نتيجة للخاصية الأولى، لأنها بالضرورة تؤدي إلى فقدان الإنسان السيطرة على جسمه، وعلى عضلاته بأسرها، ما دام قف فقد فيما فقد – الإحساس بوجوده نفسه. إلا أن هذا الجسم شبه الهامد تظل فيه « الحياة » أو سر الحياة: فالقلب ينبض والأنفاس تتردد، والدورة الدموية ماضية في طريقها على ما بها حينئذ من هبوط أو ضعف أي أن الجسم الفيزيقي، يظل في حالة مقترنة بخصائصها المعروفة في الجملة وإلا لانتقل إلى النوع الثاني، أي الموت الكلي.

فالروح، تظل مرتبطة برباط ما مع هذا الجسم، حالة فيه حلولاً كاملاً، قد لا يؤتي جميع ثمراته، ولكنه حلول كامل على كل حال وإن صح بشيء من التوسع أن نسمي هذه الحالة باسم « الموت الجزئي »، أي أن تجربة الموت في هذه الحالة، تمثل تجربة صغيرة من التجربة الكبرى، حين يغيب الإنسان عن هذه الحياة،وتنقطع كل صلاته بها وينتقل إلى عالم آخر يختلف تماما عن هذا العالم الذي نعيش فيه.

وليت من يسترد وعيه، كان يستطيع أن يطلعنا على طبيعة هذه التجربة الصغيرة، أو يصف لنا شيئا من هذا العالم الغامض الذي عاد إلينا منه! هيهات هيهات، فحتى العقل الباطن صفحة بيضاء. نعم قد رويت قصص تتحدث عن ذكريات عاد بها بعض من استرد وعيه عن فترة غيبوبته، ولكنها بالأساطير أشبه.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٩

على أنه لا يفوت الإنسان أن يستخلص الكثير والكثير من العظة والعبرة، إذ إن أوجه التشابه بين هذه الرحلة القصيرة، ورحلة الموت الأخيرة جد كبيرة.

٣- حالة النوم:

تعد حالة النوم من نوع الموت، الذي اخترنا تسميته « بالموت الجزئي »، لأن أمارات الحياة قائمة، لكن مع تعطل بعض وظائفها.

ويهمنا بادئ ذي بدء أن نتعرف طبيعة هذه الظاهرة البشرية ذات الأهمية البالغة. إذ إن الموضوع كان محل نقاش وجدل بين العلماء والفلاسفة وقد أشار إليه القرآن الكريم إشارة واضحة.

فمن بين فلاسفة اليونان، يرى أفلاطون (+٣٤٧ق.م) ومعه الرواقيون «أن النوم يكون راحة الروح الحي عند استرخائه»[١].

وقد يقال: هذا كلام ممكن أن يفهم على معنيين: ذلك إن أفلاطون إن كان يقصد بالروح الحي هذا الجسم الشفاف الأثيري الذي يسرى في الجسد سريان الدهن في السمسم، والماء في اللبن، فهو مخطئ، لأن هذه الأجسام الأثيرية لا تتعب أو تكل لكي تستريح، إذ هي مخالفة في خصائصها مخالفة تامة للأجسام البشرية.

وإن كان يقصد بالروح الحي، الجسم البشري على غرابة ذلك فهو مصيب إذ إن النوم حالة من حالات استرخائه، كي يستجم ويستعيد قواه ومقومات نشاطه.

ولكن المتصفح لكلام الفلاسفة في علاقة الجسد بالروح أو النفس، قد يستشف في هذا الترديد قدراً من السطحية، لأن الجسد والروح يتفاعلان، بل قيل إنهما وجهان لعملة واحدة، وهذا التفاعل هو الذي لحظه أفلاطون في عبارته الآنفة: فهو يريد المجموع ولا يضع حدا فاصلا بين الأمرين فهو إذن وأرسطو (+٣٢٢ق.م)، على قدم سواء[٢].

وهذا، في المآل هو رأى انكساجوارس (+٢٨ق.م) إذ يقول: إن النوم: «شيء مشترك

(١) فلوطرخس : الآراء الطبيعية م٥ / ١٨٤.
(٢) فلوطرخس : الآراء الطبيعية م٥ / ١٨٤.

يعم أفعال البدن» وأن هذه الأفعال للبدن لا للنفس»[١]، لأن هذه الأفعال التي للبدن، تنعكس على النفس تأثيراً وتأثراً.

ويشترك لوقبس (+٤٤٠ق.م) مع انكساجوارس في الرأي نفسه، مضيفا أن النوم يكون بتعب البدن فقط وهي إضافة مفسدة.

ويستخلص مما سبق أن الفلسفة اليونانية لم تقدم تصوراً حقيقياً لطبيعة النوم، بقدر ما قدمت علاقة النوم بالجسم وبالروح أو النفس.

أما أبو حيان التوحيدي [٢](ت٤١١هـ) فيقدم رأيا صائباً إذ يرى «أن النوم واسطة بين الحياة والموت «وهو بعينه رأي الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ) حيث يرى» أن النوم نوع وفاة ومثل النوم بين الحياة والموت، مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة [٣].

أي أنهما يريان أن النوم «موت جزئي» كما ذهبنا في بيان نوعي الموت.

وعلى أي حال فهذا ما قرره بعد ذلك الفيلسوف شوبنهاور (+١٨٦٠م) «أن النوم قطعة من الموت نستعيرها لنحفظ ونجدد بها ذلك الجزء من الحياة الذي استنفذناه طوال النهار» [٤].

ويكاد يكون من البدهي أن أبا حيان والغزالي يستمدان رأيهما أساساً من القرآن الكريم، حيث صرح به المولى سبحانه إذ يقول: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ**﴾ [٥] وفصله وقارنه بالموت الكلي في قوله تعالى: ﴿**اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٦].

ويقول المرحوم الشهيد سيد قطب (ت ١٩٦٦م). وهو بصدد تفسير الآية الأولى: «

(١) المصدر السابق والصفحة.
(٢) الإمتاع والمؤانسة جـ١ / ١٨.
(٣) الإحياء جـ١ / ٣٤٥ جـ٤ / ١٧٩.
(٤) حكم وأمثال، نقلا عن أحمد معوض: شوبنهور ص١٠٥.
(٥) سورة الأنعام الآية ٦٠.
(٦) سورة الزمر الآية ٤٢.

هي الوفاة إذن حين يأخذهم (أي البشر) النعاس، هي الوفاة في صورة من صورها »[١].

نستخلص من كل هذا أن النوم «حالة وسط» بين الحياة والموت تعترى الجسم الإنساني لمدة زمنية محددة. وهذه الحالة قريبة من الحالة السابقة أي فقدان الوعي، وأهم فارق بينهما هو قدرة النائم – لا فاقد الوعي – على اليقظة لأي مؤثر فعال يعرض له أثناء نومه «حيث تعتري الحواس غفلة، والعقل سكون، والوعي سبات أي انقطاع»[٢].

إذن فمع تلك القدرة تتعطل حواس النائم المستغرق تعطلاً كاملاً ويفقد كل اتصال له بالعالم الخارجي، ويصبح له عالم آخر يعيش فيه من خلال أحلام النوم، التي تكشف عن أحداث الماضي وتفاعلاته وعقده وأفراحه وأتراحه، أكثر مما تكشف عن أحداث المستقبل.

ومعنى هذا أن العقل الواعي يغيب أيضا عن إدراك ما يحيط به، ويخلى المجال لنشاط العقل الباطن من خلال الصور المختزنة فيه، ويترتب على ذلك الفشل الكامل في تقدير صيرورة الزمن، فيخطئ النائم بعد استيقاظه خطأ جسيما في تقدير مرور الوقت فإذا نام طويلاً فقد يتصور أن الوقت مر كلمح البصر وإذا نام لمدة قصيرة، فربما أعتقد أنه استغرق في النوم طويلاً.

وليس يخفى أن هذه المظاهر تمت بسبب أو بآخر إلى مظاهر الموت الكلي وإن كانت أوجه الاختلاف كثيرة أيضا: حيث في الموت تتعطل الحواس تماما أو بالحري تبطل وينتهي دور العقل بعملياته العقلية المعروفة، وتتوقف الوظائف البيولوجية – كما سوف نرى بعد – ثم الشأن أن لا يعود الميت إلى هذه الحياة [٣] وهذا لا يكون للجسم الحي في أثناء النوم إذ إن النائم ممكن أن يستيقظ عند أقل حركة خارجية أو من تأثير الأحلام المزعجة أو النوم غير المريح وقد يقص قصصا طويلة عن تجاربه الغريبة في عالم الأحلام.

---

(١) في ظلال القرآن جـ٧ ص٢٦٥.

(٢) في ظلال القرآن جـ٧ / ٢٦٥.

(٣)وما سمعنا قط بشيء من هذا إلا فيما يذكر من الخوارق ، وهي قصص لا نؤمن بها ، لأن كل سلطان شخصي يزعم أن له أصلاً خارقاً للطبيعة قد فات أوانه في تاريخ البشر « محمد إقبال : تجديد التفكير الديني ص١٤٥.

لا ريب إذن أن النوم – كما أسلفنا – تجربة مصغرة لرحلة الموت الطويلة ونحن عادة لا نأخذها هكذا، ولكن المتأمل منا يجد فيها كل يوم طعماً خاصاً، ومذاقاً غريباً لرحلة الموت المرتقبة.

ثانياً: الموت الكلى:

نعنى بالموت الكلي هذه الحالة الفاجعة المألوفة لنا جميعاً، والتي ينتهي بها دور الإنسان في هذه الحياة، ويستقبل عالما آخر ما نعلم عنه لا يقاس بما نجهل. وهي بالطبع تختلف في أكثر جوانبها عن الموت الجزئي، إذ تختلف في خصائصها المميزة، وفي النتائج التي تؤدي إليها.

وطبيعة الموت تأخذ بالنسبة لنا مظهرين بارزين كلاهما أليم مروع: المظهر الخارجي، والمظهر الداخلي؛ وهما مظهران من الصعب وضع حد فاصل بينهما بكل دقة، إذ إن التغيرات الجسمية الخارجية، والفسيولوجية الداخلية تعم الجسد الواحد في آن واحد. ولكن لا مفر لنا من معالجة كل واحد منهما على حدة، واستخلاص مميزات من هذا وذاك تعين على تفهم طبيعة الموت.

أ- المظهر الخارجي:

هذا المظهر الخارجي المرئي للجميع، قلما لم يصادفه أحد، فما منا أحد – فيما عدا مستثنيات – إلا وقد فجع في أبيه أو أخيه، أو بأحد أحبائه وارتسمت على مرأى منه ومسمع صورة الموت الكئيبة، على هذا المحيا الأثير لديه أو ذاك: في شحوب بالغ، كشحوب السماء وهي تستقبل بوادر المساء هكذا الإنسان؛القوة والفتوة والتدفق والحيوية، أصبح كومة من العظام شد عليها جلدة واهنة وبرزت العروق نافرة، وغارت العينان في هوة سحيقة، داخل كهف الوجه المظلم، الذي كان ذات يوم ناضراً مشرقاً، وتهدل الحاجبان صانعين أمواجا عديدة، تبدأ صغيرة عند المركز، وتتسع كلما بعدت عنه، فإذا كان قد مضى على حادث الموت بعض الوقت لفترة كافية، بدا الوجه مغطى بالتجاعيد كثمرة ذابلة طال عليها الأمد، وبدت وجنتاه كحبتي برتقال سقطتا منذ زمان فغثا فيهما

العفن، وكأنما الفم الذي كان يوما باسما، وقد التوت شفتاه يمنة ويسرة وفي كل اتجاه، يريد أن يطبع صورة اشمئزاز أو سخرية فتلوح من ثناياه أسنان بارزة لا تذكر بالإنسان بقدر ما تذكر بوحوش الغابة، كما أن الرقبة التي كانت يوماً حلية وجمالا، باتت لا تذكر إلا بشاهد القبر، وكأنما الصدر الذي طالما خفق بالحب والشوق والأمل وقد زال لحمه وشحمه وبرزت عظامه صانعة قوساً كبيراً.

أما باقي الجسم فقد نسج عليه الموت خيوطه المهلهلة، ملونة بجميع الألوان القاتمة والكئيبة، حتى ليصدق عليه ما صدق على فتية أهل الكهف: ﴿**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**﴾ (١).

حب البقاء في داخل الإنسان، والموت يزحف ليحكم قبضته الفولاذية على هذا الكائن الواهن الواني (ربما) معركة غير متكافئة، معروفة النتائج يكثف الموت الحصار، والجسم يقاوم وينتفض وأخيراً حشرجات مبحوحة تعلن الاستسلام، والأنفاس تتضعضع رويداً رويداً لتخفت ثم تتوقف. سكت القلب، سكن النبض. لقد انتصر الموت على الحياة.

١- صورة الموت المرئية كما صورها القرآن الكريم:

يرسم المولى سبحانه، صورة حية مأساوية، نابضة بكل ما في استقبال الموت من هول أي هول. ويكشف عن أدق تفاصيل الصورة وأبعادها، بما فيها من دموع وحزن، وكرب وشدة، والله سبحانه هو خالق الإنسان ويعلم ماتوسوس به نفسه ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾.

لذا فإن هذه الصورة هي أدق ما يصور طبيعة الموت وآثاره وهو يزحف نحو الإنسان المسكين. يقول عز من قائل: ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾ (٢).

---

(١) سورة الكهف الآية ١٨.
(٢) سورة ق الآية ١٩.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه، ويقول: سبحان الله إن للموت لسكرات «وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب في الأوصال»[١].

فأبعاد الصورة تتضح من عدم القدرة على ضبط الذات: فقدان التوازن والترنح الشديد كغصن شجرة أمام ريح عاصفة، أو كأرجوحة لا تستقر على حال.

وفي لوحة أخرى عرضية،هي في الأصل صورة الجبان المروع ترسم لنا الآيات القرآنية الكريمة صورة الإنسان وقد حل به الموت واستحوذ عليه الرعب،وتمثل ذلك أجلى ما تمثل في منظر العينين الزائغتين تدور في حدقتاهما دوراتهما المفزعة، كالباحث في غير طائل عن ملجأ أو منجى ﴿**فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾[٢].

وفي كلمات قليلة بليغة يصف المولى سبحانه الحالة اليائسة التي يكون عليها الإنسان في لحظاته الأخيرة، وقد بلغت روحه الحلقوم، وعلى الرغم من أن هذا أمر داخلي، فإن رد الفعل الفاجع لصعود الروح ينعكس على الوجه ويتمثل تمثلا على ملامحه، فإذا أخوف صورة ترسم لرعب الإنسان! لكن أهو الخوف من المجهول الآتي من بعيد؟ أم الخوف من مشاهد رهبة لا تتبدى إلا لمن كان في سياق الموت؟ أم هي المعاناة الأليمة؟ أم مجموع ذلك كله؟ من يدري؟ وإذا العجز اليائس في لغة الشاهد والمشهود: يقول سبحانه ﴿**فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۞ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ**..﴾[٣] إننا نسمع صوت الحشرجة، ونبصر تقبض الملامح، ونحس الكرب والضيق.. كما نبصر نظرة العجز، وذهول اليأس في ملامح الحاضرين.[٤]

هذه هي الصورة العامة أو المظهر الخارجي لطبيعة الموت، كما تتبدى في الواقع، وكما

---

(١) في ظلال القرآن جـ٢٦ ، تفسير سورة ق ، ص٥٥٨.
(٢) سورة الأحزاب الآية ١٩.
(٣) سورة الواقعة الآية ٨٣ ، ٨٤.
(٤) في ظلال القرآن جـ٢٧ / ٧٠٨ بتصرف.

رسمها القرآن الكريم. وتتلخص في التغيرات المحسة التي تظهر على الجسم، وتطبع بسمات التوجس أو المعاناة مقترنة بمظاهر العجز المطلق أفجع ما يكون هذا العجز لا فرق بين محتضر ومودع.

٢- صورة الموت المرئية كما تبدت للفلاسفة :

عكف الفلاسفة على موضوع الموت يتأملون، ويحاولون أن يفسروا طبيعة هذا الشيء الخفي، يأتي متخفيا ويذهب متخفيا، ولا يراه أحد إلا من خلال ضحاياه التي تتساقط في كل لحظة وفي كل مكان من أرجاء المعمورة. الفيلسوف المقدوني يرى أن « الموت في الظاهر برد ويبس، فإذا كانت علة الموت بردا ويبسا فعلة الحياة الحرارة والرطوبة »[١]، هل أقول صدقت يا عقل الأكاديمية، ما أسد رأيك، وأصوب نظرتك؟ أم أسأله متعقبا: فما بالها لا توجد الحياة أو لا تعود إذا وفرتا عنصريها هذين؟ لئن صدق في شيء، فقد صدق في قصر كلامه على الظاهر.

وابن طفيل (ت٥٨١ هـ) هو الآخر، تأمل كثيرا في هذه القضية، وعاش تلك التجربة من خلال موت الظبية في قصته «حي بن يقظان» فكتب رأيه بوضوح بعد أن رأى «الظبية» جثة هامدة، ورسم لنا صورة حية للمظهر الخارجي للموت. يقول: «ما زال الهزال والضعف يستولي عليها ويتوالى، إلى أن أدركها الموت، فسكنت حركاتها بالجملة، وتعطلت جميع أفعالها.. فكان يناديها بالصوت الذي كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه، ويصيح بأشد ما يقدر عليه، فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغيير[٢]، فكان ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بها آفة. فكان يطمع أن يعثر على موضع الآفة فيزيلها عنها فترجع إلى ما كانت عليه، فلم يتأت له شيء من ذلك ولا استطاعه »[٣].

ب- المظهر الداخلي:

هذا هو المظهر الآخر للتغير الفسيولوجي الذي يعتري الجسم البشري من جراء

(١) الحاس والمحسوس ص٢٣٦.
(٢) لعلها : تعبيرا.
(٣) حي بن يقظان ص٦٨.

قدوم الموت. وهو مظهر بشع في مجمله؛ فالموت قد حضر وقضى الأمر، ومن ثم تقع سلسلة من التغيرات تنتهي بالإنسان إلى مصدره الأصلي وهو التراب، مصداقا لقول الرسول ﷺ: كلكم لآدم، وآدم من تراب.

فبعد الموت وصعود الروح إلى بارئها، يبدأ جسم الإنسان في التحلل وحين يوضع في قبره، تكتسحه جيوش من الهوام والديدان؛ ملايين من المخلوقات العجيبة منها ما نعرف، ومنها ما نجهل. فلا ندري كم يذهب منه وكم يبقى إلى أن تنحل عناصره إلى أصول تكوينه، «فالموت ليس إلا انحلالاً للعناصر التي يتكون منها الإنسان، فيعود كل إلى أصله. إن الأمر لا يعدو أن يكون تغيرا كبيرا لا فناء»(١).

والحقيقة أن كثيرا من المفكرين والفلاسفة، استرعت انتباههم هذه المسألة هذا أبو حيان يقول: «الإنسان إذا مات فليس يعدم رأساً، بل إنما تبطل عنه أغراض، وتعدم عنه كيفيات، فأما جواهره، فإنها غير معدومة، ولا يجوز على الجوهر العدم ألبته » (٢) هكذا رأى أبى حيان. فهو يصور التغير الذي يحصل بالموت على هذا النحو، ولا يراه فناء تاما، ولكن هذا المعنى ربما يكون أوضح إذا أخذ من زاوية ثنائية تركيب الكيان الإنساني، فالجسم بملحقاته مصيره الفناء والعدم، والارتداد إلى طبيعته الأولى.

أما الروح فهي من عالم السماء، عالم البقاء والخلود، ومن ثم لا تصير إلى عدم، بل تصعد إلى ملكوتها وهذا هو ما يردده الإمام الغزالي إذ يقول: «العقل لا يتغير بالموت، إنما يتغير البدن والأعضاء، فيكون الميت عاقلا مدركا بالآلام واللذات كما كان»(٣). وهو رأي مستقى من نصوص القرآن والسنة ردا على منكري البعث الذين: ﴿**قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**﴾ وتكرر ذلك من قولهم في سورة الصافات ١٦-٥٣، وفي سورة الواقعة الآية ٤٧. ولكي تكتمل الصورة صورة طبيعة الموت، يبقى الجانب الآخر من الإنسان: أي الجانب الحي الذي اختاروا أنه لا يموت، وهذا ينقلنا إلى النقطة التالية.

---

(١) محمد يوسف موسى : تاريخ الأخلاق ص١٣٢.
(٢) الهوامل والشوامل ص١٨٨.
(٣) الإحياء جـ٤ / ٥٠٣.

ج- صعود الروح إلى الملكوت الأعلى:

هناك شبه إجماع بين أصحاب المناحى الفلسفية، والاتجاهات الدينية ان الموت واقع على الجسد دون الروح، ويترتب على ذلك فناء الجسد، وخلود الروح « فمنذ أن وعى الإنسان وجوده على الأرض، أحب الحياة وعشقها، وكره الموت الذي يطارده شبحه كل لحظة، فعمل جاهدا على التوصل إلى وسيلة يستأنف بها للحياة مرة ثانية. وقد صور الإنسان هذا الاستئناف بصور شتى، وأشكال متباينة. وهي في جملتها صدى لرغباته، أو انعكاس لعالمه الحاضر والحياة التي يحياها ويريد بذلك أن يلتمس لنفسه السلوى إزاء قصر الحياة، وبغتة الموت، ومن ثم تفتق ذهنه منذ فجر التاريخ عن فكرة الخلود، ثم جاءت الأديان، فطيبت خاطره، وهدأت من روعة، وأكدت فكرة استمرارية الحياة مرة ثانية في عالم آخر»[١].

ومنذ ربيع الفلسفة اليونانية قرر سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، خلود الروح، حتى ليقرر سقراط بكل وضوح وهو يشرح لسمياس طبيعة الموت: «وهل يكون الموت إلا انفصال الروح عن الجسد؟ والإنسان إنما يبلغ هذا الانفصال إذا قامت الروح بذاتها مفصولة عن الجسد، وقام الجسد مفصولا عن الروح»[٢].

ومن بعده أفرد تلميذه «أفلاطون محاورة مستقلة هي» فيدون «لكي يسوق البرهان تلو البرهان لتأكيد مبدأ خلود الروح.

وأرسطو على الدرب نفسه يسير فيقول: «إن الموت للبدن وحده لا للنفس فإنه لا موت لها»[٣].

وفلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، ناقشوا هذه المسألة باستفاضة وكانت ركيزتهم الأساسية: القرآن والسنة، لذلك لم يخالفوا في مجمل رأيهم قول القرآن بخلود الروح:

---

(١) الزيني : مشكلة الفيض ص٤٨ ، الدكتور مدكور : في الفلسفة الإسلامية جـ١ / ١٨٠-١٨١ ، ديورانت : مباهج الفلسفة جـ٢ / ٢٥٩.

(٢) افلاطون : محاورة فيدرون ص١٢٣.

(٣) فلوطرخس : الآراء الطبيعية ص١٨٤.

فالكندي (ت٢٥٢ هـ) «قرر خلودها، وأن الجسد يفنى ويبيد، أما هي فباقية بعد الموت بعد أن تتحرر من الجسد»[١].

والفارابي (ت٣٣٩هـ) «أطلق القول بخلود النفس الكاملة»[٢].

ومسكويه (ت٤٢٠ هـ) يرى أن خلود النفس أمر بدهي لا يحتاج إلى برهان، لأن النفس جوهر مجرد حي، وهذا باق لا يقبل الموت ولا الفناء. أو بعبارة أخرى، لأن النفس ليست بجسم ولا عرض، وإنما هي جوهرة بسيطة. والجواهر المجردة، غير مركبة ولا ضد لها، وما لا ضد له لا يبطل، وغير المركب لا ينحل ولا يفسد[٣].

وابن سينا (ت٤٢٨ هـ) كذلك، وبراهينه مشهورة، أهمها: برهان الانفصال، والبساطة، والمشابهة[٤].

وإخوان الصفاء ينحون المنحى نفسه فيؤكدون أن الموت واقع على البدن وليس النفس «فهي جوهرة روحية، بسيطة لا تفسد، ولا تفنى، بل إن ولادتها تكون عند موت الجسد، حين تتحرر تماما من كل القيود التي تكبلها... فإذا تحررت منه، اقتصر الفساد والآفات على الجسد»[٥].

ورأى الغزالي صريح بهذا المعنى إذ يقول: «لو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا ينقسم،لكان الإنسان العاقل بكماله باقيا وهو كذلك بعد الموت»[٦].

وهو يؤكد هذا المعنى في مكان آخر بقوله: «الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد»[٧].

---

(١) رسالة القول في النفس ص٢٧٥.
(٢) المدينة الفاضلة ص٩٥-٩٦ ، الزيني : مشكلة الفيض ص٥١.
(٣) الفوز الأصغر ص٤٦ ، الزيني : مشكلة الفيض ص٦٠.
(٤) الشفاء : النفس ص٢٠٢ ، ٢٠٦.
(٥) الرسائل جـ٢ / ١٨ جـ٣ / ٥١.
(٦) الإحياء : جـ٤ / ٥٠٣.
(٧) الإحياء جـ٤ / ٤٩٤.

ومن يريد الاستزادة في هذه المسألة فعليه مراجعة كتبه[١] حيث أورد الكثير من الحجج، ليؤكد فيها خلود الروح فهي عنده إحدى المسلمات كما هي عند عمانويل كانت +١٨٠٤م، إلا أن منطلق الغزالي في البدء والنهاية هو القرآن والسنة.

وإذا انتقلنا إلى المغرب العربي فمن الجدير أن نشير إلى رأى البطليوسي (٥٢١ هـ) الذي قرر: أن النفس الناطقة على الرغم من حدوثها، فهي باقية، خالدة، بعد فناء الجسد، ويقدم براهين كثيرة على هذا الخلود[٢].

ونشير إلى رأي ابن طفيل الذي تعرفناه سابقا في مسألة التغير الفسيولوجي الظاهري للموت ذلك أن خلود الروح عنده يتضح من خلال محاولات بطله «حي» أن يستكشف أسباب موت أمه الظبية فإن «حيا» لما لم يجد أن هناك علة ظاهرة يرجع إليها الموت «وقع في خاطره أن الآفة التي نزلت بها إنما هي في عضو غائب عن العيان مستكن في باطن الجسد، وأن ذلك العضو لا يفنى في فعله شيء هذه الأعضاء الظاهرة»[٣].

وقد أخذت الحيرة «حيا» لأنه جهل طبيعة هذه القوة التي كانت تسكن هذا الجسد، وأجهد نفسه لكي يعرف حقيقتها، والعلاقة بينها وبين الجسد وإلى أين صارت، ومن أين خرجت؟[٤].

وبعد تفكير عميق وبحث دءوب، واستقصاء لجوانب النفس والجسد، تبين له أن النفس «أمر غير جسماني، لا يجوز عليه شيء من صفات الأجسام، أخص خصائصها أنها بريئة عن شوائب المادة ومن ثم فهي لا تفسد ولا تموت، لأن الفساد مختص بالأجسام[٥]أما فيلسوف قرطبة، فلا يشذ عن هذا الإجماع، فيقرر هذا الخلود صراحة كما هو متوقع في كتابه «مناهج الأدلة» ويبين أن لها في خلودها أحوالا من السعادة والشقاء،

(١) معراج السالكين ص٣٦ ، الرسالة اللدنية ص١٠ ، معارج القدس ص٩٥-١٠٢.
(٢) الحدائق في المطالب العالية ص٦١-٦٢ ، الزيني : مشكلة الفيض ص٦٨.
(٣) حي بن يقظان ص٦٩-٧٠.
(٤) المصدر السابق ص٧١-٧٢.
(٥) المصدر السابق ص٩٣-٩٤.

ويدلل على ذلك كله بأدلة شرعية وعقلية [١].

ونختم هذه الآراء في مسألة خلود الروح برأي لأحد أئمة الحنابلة، ونعنى به ابن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ. فقد قرر مع الكثرة الغالبة، أن الروح خالدة، تبقى بعد فناء البدن، وأنها لذلك خلقت كما نرى في مثل قوله: «أن موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها، وخروجها منها، هذا وحده هو الموت الذي نستطيع أن نطلقه على الروح، كما أطلقه الله تعالى، إذ يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. لأن النصوص صريحة في أنها باقية بعد هذه الحياة – إما في نعيم أو في عذاب»[٢].

ونخلص من جملة الآراء السابقة: بأن الموت ما هو إلا موت الجسد، هذا الشيء المادي الملموس الذي ينتمي إلى عالم الحركة والصيرورة والفناء، وتسرى عليه قوانين هذه الحياة: فيمرض ويبلى ويتحلل ويفنى، ويرد إلى أصوله الأرضية.

أما الروح الملابسة للجسد، والقوة المحركة له، الحالة فيه، أو الجسم الأثيري، كما يقول العلماء، فتفارق الجسد وتذهب إلى عالمها، عالم الروح الخالص، عالم النور والملائكة والفيض الإلهي. ومن ثم تتضح طبيعة الموت بجلاء من خلال فهمنا لهذه الحياة: فهي خطوة على طريق الخلود، يصل الإنسان إليها لكي يعبرها إلى عالم آخر ولكي ينتقل إلى ذلك العالم الآخر فلا بد أن يتخلص من هذا الجسد، إذ إنه سيذهب إلى عالم لا يحتاج فيه إليه، ثم هل تبقى الروح كيانا مستقلا: جوهرا من الجواهر النورانية تعيش في عالم الخلود مجردة؟ أم أن الله سبحانه سيحدث بعد ذلك أمراً كان مقدوراً، فتكون إعادة الأجساد، ثم الثنائية مرة أخرى على نمط مختلف جدا؟ هذا مجال نقاش طويل بين علماء الدين والفلسفة.

ثالثًا: إرادة الله:

وبعد كل هذا: بعد كل هذه التفسيرات الفسيولوجية والبيولوجية، الخارجية والداخلية، والتعرض لخلود الروح بعد انفصالها عن الجسد ما زال تفسيرنا لطبيعة الموت

(١) ابن رشد: مناهج الأدلة ص٢٤٣-٢٤٤، الزيني: مشكلة الفيض ص٧١.
(٢) ابن القيم: الروح ص٢٥٣.

مبتورا ناقصا.. فمهما سمعنا من العلماء والفلاسفة، فلا بد أن نسمع صوت الحق، واجب الوجود، خالق الإنسان فقوله هو القول الحق، الذي لا يقبل النقض: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾[١].

لماذا لا نؤمن فنريح ونستريح. أن الموت – الذي هو قانون من قوانين الحياة – خلق من خلق الله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٢]. وهو فعل من أفعال العناية الإلهية تتجلى فيه إرادة المولى سبحانه.

ومهما نرى في حياتنا من مظاهر كثيرة للموت القادم من خلال أمراض الجسم التي تصيب القلب أو الرئتين أو الرأس، أو أي منطقة من مناطق الجسم، ومن خلال لا شيء فيما يبدو لنا، ومهما يقل لنا علماء البيولوجيا: أن الموت يأتي بعد أن تتهاوى الأجهزة الداخلية والخارجية للإنسان، وتشيخ وتهرم وتصبح غير قادرة على أداء وظائفها.

مهما نرى ومهما نسمع، فإن علينا أن نفسر طبيعة الموت في أصلها بأنه إرادة الله السارية في الكون، الذي يقول للشيء كن فيكون[٣].

طبيعة الموت هذه، هي كلمة الله النهائية للإنسان في هذه الحياة هي إشارة الرحيل، وربما قال قائل أنها دليل المحبة، ودعوة للقدوم إلى العالم الخير الجديد الذي تنتفي فيه ملامح الشر وقسوة البشر وعبودية بعضهم لبعض وحقد الشيطان وهوس الجاهلية.

طبيعة الموت؛ هي النعمة الإلهية التي أسبغها الله على عباده دون أن يدركوا ذلك، لأنهم محاصرون بأثقال المادة، وكثافة التراب، وشهوة الجسد وأحلام العمر الجديد.

هذا مجمل القول: أما تفصيله وتفسيره وتحديد معالمه م فلا مناص من هذا الاعتراف: أن المسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة هائلة تدير الرؤوس، ولكنها في حساب القدرة الإلهية أمر يسير.. كيف؟ هذا مالا أحد يدريه، مالا يمكن لأحد إدراكه.. إن إدراك الماهية والكيفية هنا سر من أسرار الألوهية، لا سبيل إليه في عالم الفانين..! وإن يكن في

(١) سورة فصلت الآية ٤٢.
(٢) سورة الملك الآية ٢.
(٣) عبد الغنى عبود : اليوم الآخر ص٦٦.

طوق العقل البشري إدراك دلالته والاتعاظ به»[١].

القوانين الإلهية السارية داخل هذا الكون، هي التي أوجدت هذه الثنائية والنظرة المدققة ستلمسها بين أفراد البشر، ومكونات الوجود.

والآن، وفي ختام هذا الفصل – دعنا نستمع إلى صوت الشاعر الذي.. يخلط الفن بالفلسفة إذ يصف الحياة والموت:

«حياة الغيوم فراق ولقاء، دمعة وابتسامة، كذا النفس تنفصل عن الروح وتسير في عالم المادة، وتمر كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الأفراح فتلتقي بنسيمات الموت، فترجع إلى حيث كانت: إلى بحر المحبة والجمال إلى الله»[٢].

***

(١) سيد قطب : الظلال جـ١ / ١٠٢ (تفسير سورة البقرة).
(٢) جبران خليل جبران : دمعة وابتسامة ص٢٤٣ (من الأعمال الكاملة).